القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

شارل مارتل

عبد الحميد جودة السحار

٨

١

انتصرَ شارْلْ مارتِلْ على الجيوشِ العربيةِ المتدَفِّقةِ للاستيلاءِ على أورُبَّة ، في المعركةِ التي دارتْ بقُربِ « تُور » ، وانتهتْ بقربِ بواتييه ، وسقَط عبدُ الرَّحمنِ الغافقيُّ أميرُ الجيوشِ العربية صريعا ، وانسحبَ الجيشُ العربيُّ من فرنسا إلى البِرانيه ، مُدَمِّرًا كل ما مرَّ به .

شدَّ ذلك النَّصرُ أزْرَ المسيحيِّين ، وشحَذَ عَزائِمَهم ، وجعَلَهم يعتَقِدُونَ أنَّ اللّهَ صارَ يؤيِّدهم ، إذْ دبَّ الوَهَنُ في صُفوفِ المسلمين ، وراحَ الصَّالِحونَ منهم يقولون : إنَّ ما نَزَلَ بهم من هزيمة ،

إنّما كان غضبًا من اللّه ، لِما اقترفُوا من ذنوب ، ولأنّهم اشترَوا الدُّنيا بالآخِرة .

وبَلَغَ خبرُ هذه الهزيمةِ قُرطُبة ، فحزِنَ النّاسُ حُزنًا شديدا ، وارتَدُوا السّواد ، وبعثَ أميرُ قُرطبةَ بنبإِ هزيمةِ المسلمينَ في بلاطِ الشُّهداء ، إلى القَيروان ، وإلى دِمَشق ، فامتَلأَ صَدْرُ أميرِ المؤمنينَ حُزْنًا وأسى ، وعزمَ على أن يغسِلَ عارَ الهزيمة ، فأرسلَ عبدَ الملِكِ ابنَ قطن الفِهرِيَّ أميرًا على الأندلس ، وجَهَّزَ معه جيشا ، وأمَرَه بالأخْذِ بثأرِ المسلمين .

انطلقَ عبدُ الملكِ إلى الأندلس ، وراحَ يخطُبُ في النّاس ، يُذَكّرُهم بأفضَلِ ما فيهم ، ويدعوهم إلى الجِهاد . ثمّ سارَ بالنّاسِ إلى كتالُونيا وأراغُونَ ونافار ، ثم تقدّمَ إلى بلادِ اللّغدون ، وحصّنَ المدنَ

التى كانت فى أيدى المُسلمين ؛ ولكنْ شارلْ مارتِلْ لم يخِفَّ لقتالِه ، فقد كان مشغولا ببسطِ سُلطَتِه على بُرغُونْية ، وعلى مُقاطَعةِ ليون ، حيثُ كان المسلمونَ قد شَنُّوا الغارات ، وأوقَعُوا الرُّعبَ فى قلوبِ النّاس .

٢

اتَّفقَ يوسُفُ أميرُ أربُونةَ العربيّ ، مع مُورُونْدَ دوقِ مرسيليا ، وزحفَ المسلمونَ بجيشٍ جرّار ، وعبَرُوا نهرَ الرُّون ، واستولَوا على مدينة « آرل » ، ثم تقدّمُوا إلى أواسِطِ بلادِ البْرُوفانس ، وحاصَروا مدينة سانْ ريمى ، واستولَوا عليها ، وتَدَفّقُوا كالسّيلِ الجارِفِ صوْبَ « آفِينيون » .

وهبّ سكّانُ « أفِينيون » لصَدّ هُجومِ الجَيشِ الإِسلاميّ ، ولكن تكسّرَت مقاوَمَتُهم أمامَ تيّارِ المسلمينَ المُتدَفّق ، وانسحَبُوا من ممرّ « دُورانس » ووقَعَتْ « أفينيون » ، التى شيّدَ عليها فيما بعد قصرُ البابوات ، فى أيدى المسلمين .

ومـات « أود » دوقُ أكتيانْيـا ، وعَـدُوٌّ شـارل مارتِل اللّدود ، فانْقَضَّ شـارلُ مـارتِل على بـلادِه ، واستولَى عليها ، وبذلك ازدادَ شارلُ قُوّةً على قوّة ، وباتَ يتحيَّنُ الفُرَصَ لقتالِ العَرب ، الذيـن يُهـدِّدُونَ بلادَه ، والذينَ يتطلّعونَ إلى وضْعِ أيديهم على أورُبّةَ بأسرِها .

٣

انتصَـرَ الأمير عبـدُ الملـكِ بنُ قطـنِ الفِهرىُّ فـى فرنسا، واستولَى على المُدنِ التى شنَّ الغـارةَ عليهـا ، ثم عادَ إلى جبـالِ البيرانيـه ، لتـأديبِ الأهـالى الذيـن أعلَنُوا عِصيانَهم . راحَ عبدُ الملكِ يُقـاتِلُ فـى الجبـالِ قتالَ الأبطال ، وإذا بالسَّـماء تتلبَّـد ، وإذا بالأمطـارِ

تهطِل ، وإذا بالرِّياحِ تعصِف ، فلم يحتمِل رجالُه غَضَبَ الطَّبيعة ، فوَقَعتْ عليهم هزيمة ، جعلتهم ينسحِبُونَ من الميدان .

وبلغَ الخليفةَ نبأُ هزيمةِ عبدِ الملك ، فازدادَ غضبه ، وعزَمَ على أن يبعثَ أميرًا آخَر ، يَلُمُّ الشَّمْل ، ويَرْتُقُ الفَتقَ ، ويُعيدُ إلى العربِ هيبَتهم ، وأن يسيرَ في الأرضِ يَدُكُّ الحُصونَ ، ويفتَحُ البلاد .

كانَ عُقْبَةُ بنُ الحجَّاج السَّلُولِيُّ يتوقُ إلى الجِهاد ، ويشتاقُ إلى الاستشهادِ في سبيل اللّه ، فبَعثَه أميرًا على الأندلُس .

حَصَّنَ عُقبةُ جميعَ المواقِع التي رأى تَحصِينَها في بلادِ اللَّنغدُون ، حتَّى ضِفافِ نهرِ الرُّون ، وشَحَنَها بالمُقاتِلة ، ثمَّ أغارَ على بلادِ دوفنييه ، شمالي

« بُروفانس » ، وغربيّ « سافوا » ، وشرقيّ « ليون » . واحتلّ المسلمونَ أخذًا بثأرِ جيشِهم ، الذى قَهَرَه شارْلُ فى بلاطِ الشُهَداء ، مدينة لِيون ، وبَثُّوا الغاراتِ منها على « بورغُونية » . فَعَزَمَ شارلُ مارتِل على قِتالِ المسلمين ، حتى يُجلُوا عن بلادِه ، وحتّى ينقَطِعَ تهديدُهم له .

٤

رأى شارلُ مارتلْ أن يُؤلِّبَ حُكّامَ البلادِ المُجاوِرَةِ على المسلمين : فاستَصرَخَ « لِويتْبراند » ملكَ اللّومبَارديِّينَ فى إيطاليا ، لِيُوافِيَه بجيش لقتالِ المسلمين ؛ وسَرّحَ أخاهُ « شِيلْدِبْراند » بِجيشٍ إلى لِيون ، فجاءَ شِيلْد بْراند وحاصَرَ المسلمينَ فى آفينيون ، وتَبِعَه شارلُ مارتِل بجيشٍ جديد ، وجاءَ

لويتْبراندُ ملكُ اللُّومبارديِّين بجيش جرّار من إيطاليـا ، فاستولَوا على أفينيون عَنوة ، واستأصلُوا من بها مـن المسلمين .

وراحَ شارلُ مارتِل يتقدّمُ صوبَ أُربُونة ، الحصـنِ الحَصينِ للمُسلمين ، وبلـغَ عُقْبـةَ نبأُ تقـدُّمِ شـارل ، وتضْييقِهِ الحِصـارَ على أُربُونـة ، فأرسَـلَ جيشًـا فـى البحرِ لنجدَةِ المُحاصَرين ، ووصَلَ الخَبَرُ إلى شـارل ، فانقَضَّ فجأةً على الجيشِ الوافِدِ مـن البحـر ، فـدَبَّ الهَرجُ فى صُفُوفِهم ، وسَقطَ أغلَبُهم صَرعَـى ، ومـن بَقِيَ هُرِعَ إلى السُّفُنِ الرَّاسيةِ على الشاطِىء ، يلتَمِسُ الفِرار .

وعادَ شارلُ مارتِل إلى حِصار « أُربُونة » ، ولكنّـه أخفَـقَ فـى الاستيلاء عليهـا ، وفيمـا هـو يُحاصِرُهـا

وردَتِ الأنباءُ بأنَّ السَّكسُونَ قد أشعَلُوا نارَ الثّورة عليه من جديد ، فاضطرَّ إلى رفْعِ الحِصارِ عن «أربُونة» ، وراحَ يُدمّرُ فى عودَتِه القِلاعَ والحُصونَ ، فخرَّبَ القِلاعَ التى كانت فى «بيزيه» ، ودمَّرَ أبواب مدينة «نيم» ، وقِسْمًا من المَلْهى الرُّومانىّ ، الذى كان فيها ، خوفا من أن يتحصَّنَ به العرب .

٥

كان «موروند» دوقُ مَرسِيليا ، وحلِيفُ العربِ ، قدْ فرَّ هارِبًا من وجهِ شارل مارتل ، وبَقِىَ مختَفيًا حتى غادَرَ شارل مارتل جنوبِىّ فرنسا ، قافِلا إلى الشَّمال فلمَّا بَعُدَ شارل مارتل ظهَرَ موروند ،

وجَدَّدَ علاقاتِه مع المسلمين ، وراحُوا يعملُونَ معا ، ويُغِيرُونَ على بلادِ شارل .

ضَايَقَ شارل تلكَ الغاراتُ التى لا تنقطعُ على أطرافِ بلادِه ، فزَحفَ فى سنة ٧٣٩ م إلى الجنوب ، ومَعه أخوه ، وهاجَمَ مرسيليا ، واستولَى عليها ، وبعدَها قرَّ المسلمون فى « أربونة » ، لا يجرُءونَ على عُبورِ نهرِ الرُّون .

كانَ العربُ فى الأندلُس مُنقسمينَ إلى يمنيين ، وإلى عَدنانيِّين ، وكانت العداواتُ قائِمةً بينهما ، فلم تقِفْ تلكَ العدواتُ والعصبيَّةُ عند جزيرةِ العرب ، بل امتدَّتْ إلى مصرَ والشام ، ثم الأندَلس وفرنسا ، وليتَ الأمرَ اقتَصرَ على انشقاقِ العرب فحسب ، بل إنَّ البَربَر الذينَ جاءوا مع العربِ يومَ الفتح ،

كانوا يُبغِضُونَ العربَ جميعا ، الأمرَ الذى كانَ يَدِبُّ فى جِسمِ الدَّولةِ الجديدةِ كما يدِبُّ السُّوسُ فى الخشب .

وفى سنة ٧٣٧ م ، فى الوقتِ الذى كانتِ الحروبُ الرَّهيبةُ دائرةً بينَ عُقْبَة بن الحجَّاجِ وشارلْ مارتِل ، ثارَ البَربر على أميرِ إفريقيَّة ، لأنَّه عادَ فوضَعَ الجزيةَ على البربَر ، بعدَ أن كانت قد وُضِعتْ عنهم . كان البربرُ أقوامًا أشِدَّاء ، نَشَئُوا على صَهَواتِ الخيول ، فلم يَقْوَ أميرُ إفريقيَّةَ على إخضاعِهم ، فاضطرَّ عُقْبةُ أميرُ الأندلُسِ أن يُجيزَ إلى أفريقيَّة ، لإدخالِ الربر فى الطَّاعة . فانتهزَ شارلُ مارتِل فرصة غِيابِ عُقْبة ، وانشغالِه بثورةِ البربر ، وراح يُخلِّصُ جنوبيَّ فرنسا من أيدى العرب .

ومات شارلُ مارتِل سنة ٧٤١ ، وخَلَفَه ابنُه بيبين القَصِير ، واشتغَلَ في تَوطِيدِ مُلكِه في شَمالِيّ فرنسا وجنوبِها . ولاحتْ الفُرصةُ للعرب ، ليُجَدِّدوا غاراتِهم على فرنسا ، ويَبلُغُوا منها مُرادَهم ؛ ولكنْ شَغَلَهم عن ذلك الشِّقاقُ الذى دبَّ بينَهم ، وانشغالُ الخلفاءِ الأمويِّينَ عن الأندلُس بالثَّورات ، التى كانت تتوالى في الولايات الشَّرقية ، فقد كانت دولةُ بنى أُمية في آخرِ أيَّامِها تجودُ بأنفاسِها الأخيرة .

تغَيَّرتِ الحالُ في جنوبِيِّ فرنسا ، وخلا الجوُّ للمسيحيِّين ، برغْمِ ضَعفِ بيبينَ وفُتورِ هِمَّتِه . وراحتِ الحامياتُ في نِيم ، وفي بِيزِيه ، وفي

ماغلون ، تَخِفُّ شيئا فشيئا ، وتكوّنت بها إداراتٌ أهليَّةٌ تُدِيرُ شئونَها ، تتمتّع باستِقلالِها ، وإن كانت تَعترِفُ بسلطانِ المسلمين .

وفى سنة ٧٤٧ م ، تولّى يوسفُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الفِهرِىُّ إمارَةَ الأندلُس ، فبعثَ ابنَه عبدَ الرحمنِ بجيش إلى البيرانيه ، لتأديبِ الثائرِينَ بها ، ولكنَّ المَسيحيِّينَ قاوَموهُ بالسّلاحِ مقاوَمةً شديدة ، وأطمَعَ ذلك أهالى المُدُن القَريبة ، فراحُوا يُعلِنونَ الثورةَ على المسلمين ، ويرفَعُونَ رايةَ العِصيان .

وسارَ بيبين بجيشٍ إلى اللانفدون ، واستولَى على نِيم وأقت وماغلون وبيزيه ، ثمَّ زحَفَ لحصارِ أربونة ، وضيَّقَ عليها بجميعِ قُوّاتِه . وطالَ الوقتُ ، ولم تسقُطْ أربونة ، فعادَ بيبين ، وأبقَى جانِبًا من عساكِره حولَها ، تحت إمْرَةِ أميرٍ من أمراءِ القُوط .

واستدْرجَ العـربُ الأمـيرَ إلى كَمـينٍ وقَتلـوه ، ووقَعَتْ مَجاعةٌ في جَنوبِيِّ فرنسا ، عطَّلَت حركـاتِ الجيوش ، فرُفِعَ الحِصارُ عن « أربونة » .

٧

استولَى أبو مسلمٍ على خُراسان ، وسَرعانَ ما ثـارَ أهلُ العِراقِ على الـوالى من قِبَـلِ الخليفـةِ الأَمَوى ، ونُودِىَ بأبِي العَبَّاسِ خليفَةً للمسلمين ، فكـان ذلـك إيذانًا بزَوالِ مُلكِ بنى أميّة ، ومطلَع عهدِ العَبَّاسيِّين .

وراحَ قُـوّادُ أبى العَبّاس يقتفُـونَ أثَـرَ الأمويِّـين ، ويَقتلُونَهم ، ويَضعُونَ أيديَهم على البلاد ، فأصبَحَتِ الشَّامُ ومصرُ والمغربُ تديـنُ بـالوَلاءِ لأبـى العبّـاس ، مؤسِّسِ الدَّولةِ العبَّاسيَّة ، وتقَلَّصَ ظِلُّ الأمويِّين عـن

الدَّولةِ الإسلاميَّة ، وبلغَتْ أنباءُ ذلك الانقِلابِ الأندَلس ، فَبَقِيَتْ في حَيرَة ، تَرقُبُ مَصيرَها .

راحَ العَبَّاسيُّونَ يقتُلونَ الأَمويِّين في الشَّام ، وقَدْ أفْلتَ من القَتلِ شابٌّ من بني أُميَّة ، هو عبدُ الرَّحمنِ ابنُ مُعاوِية ، صقْرُ قُرَيش ؛ فانطَلَقَ إلى الأندَلُسِ وحدَه ، ليسَ معه إلاَّ مَولاهُ بدْر . وقدِ استَطاعَ بذكائِه ودهائِه وفِطنَتِه ، أن يؤسِّسَ في الأندلسِ دَولَةً أمويَّةً قويَّة ، وأنْ يُنشِىءَ فيها حضارةً شامِخةً ، فقد كان ربيبَ مَجْد ، ومن بيتِ سيادةٍ وسلطان .